

البحث عن الذات  
نظرات في شعر بعض المغمورين  
في العصر العباسي

الدكتور/ عبدالله بن سليم الرشيد  
قسم الأدب — كلية اللغة العربية  
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تزخر كتب التراث ومدونات الأدب بأسماء أعلام من الكتاب والشعراء، سكت القدماء عن الخوض في أخبارهم، وانصرفوا عن تدوين نتائجهم إلا قليلاً، فما قيّدوا عنهم لا يعدو إشارات مختصرة لبعض سيرهم، ونماذج من أدبهم، لا تشفي غلة الباحث.

وانصرف الدارسون المعاصرون بعد ذلك عنهم؛ إذ لم يجدوا مجالاً للقول، ولا فسحة للتناول النقدي، فما أثبت من نتائجهم غير كاف لإقامة دراسة ناقدة، وهذا على الأعم الأغلب؛ فثمة دراسات وبحوث تناولت آثار بعض المقلين والمغمورين من شعر ونثر.<sup>(١)</sup>

وإذ كانت الدراسة الأدبية الماهدة لإصدار أحكام ناقدة معتد بها، ومنتهى إليها، لا يمكن أن تقوم على التزّر، صار النظر في هذا النتاج للمقلين المغمورين — مجتمعاً أولى وأدعى للوصول إلى رؤى نقدية، تسهم في الكشف عن بعض خبايا الأدب، وتهدي الناظر في تاريخه إلى طرائف وعجائب، ما زال الدرس الأدبي في ميسر الحاجة إليها.

وقد لفت نظري إلى نتاج بعض المغمورين من الشعراء انطواؤه على ملامح نفسية دقيقة، أزعّم أن درسها يفضي إلى نتائج مفيدة في تحليل العلاقة بين الإبداع والحالة النفسية.

وفي هذا البحث سوف أعرّض لطائفة منتقاة من شعراء العصر العباسي، رأيت في نتائجها ما يستدعي الوقفة الناقدة، وفي ذلك النتاج الباقي — على قلته — مُستتراد ومذهب، لمحاولة ربط الإبداع بأحوال النفس وتقلباتها.

---

(١) منها دراسات: غوستاف غرونباوم في (شعراء عباسيون) و: د. نوري القيسي في سلسلة (شعراء أمويون) و: عبدالمعين الملوحي في (أشعار اللصوص وأخبارهم) و: د. عبدالرحمن الهليل في جمعه ودراسته لآثار عمرو بن مسعدة الثرية.

على أن التحليل النفسي للأدب مما غري به بعض المعاصرين، فأولوه اهتماماً كبيراً وعناية<sup>(١)</sup>، ولكنّ هذا المنهج في التحليل قد يسرف في تحميل النصوص ما لا تحتمل، وقد ينحو بعضهم مناحي تمتزج بالفلسفة الجامحة والإغماض، وربما جنت بعض النظرات على النص الأدبي، فأفقدته حيويته وانطلاقه.

ولا شك في أن التوسع في التوسل بعلم النفس في دراسة الأدب قد يؤدي إلى توارى القيم الفنية، وانغمارها في لجة التحليلات النفسية، والمعوّل عليه عند دراسة الأثر الفني هو البحث في جمالياته وقيمه<sup>(٢)</sup>، ولذا كان الأليق أن يفاد من التحليل النفسي تعريضاً وإلماحاً، دون الخوض في مصطلحات علم النفس، وهذا ما أحاوله في هذه النظرات، التي لا أزعّم أنّها دراسة نفسية، بل هي خواطر وانطباعات.

والشعراء الذين سوف يدور البحث حول نتائجهم هم: أبو العَمر المديني ومُخلّد بن بكّار الموصلي وأبو العَبر الهاشمي وأبو الشبل البرجمي. فأما أبو العَمر المديني(ت؟) فشاعر كاتب، لم تسعف المصادر ببيان الكثير عن حياته، غير أنه يمكنني جمع بعض خيوطها:

أما اسمه فهارون بن موسى، وقيل: هارون بن محمد الطمّري [قد يكون محرّفاً عن: الطّهوي] وكنيته أبو العَمر<sup>(٣)</sup>، وقد تولى الكتابة للحسن بن زيد العلوي أمير المدينة النبوية، ويظهر أنه لازمه مدّة ولايته التي دامت خمس سنوات من عام ١٥٠ إلى عام ١٥٥هـ<sup>(٤)</sup>.

---

(١) من أبرزهم د. عز الدين إسماعيل في ( التفسير النفسي للأدب ).

(٢) ينظر: النقد الأدبي لسيد قطب ص ١٩٧.

(٣) معجم الشعراء ص ٤٨٥.

(٤) ينظر: تاريخ الطبري ٣٢/٨ - ٤٩.

ويظهر أيضاً أن للحسن هذا يداً على أبي الغمر، وأنه ظلّ ذا صلة به بعد عزله إلى أن توفي - أي الحسن - عام ١٦٨ هـ<sup>(١)</sup>.

وبلغ من شهرة كتابته للحسن أن اكتفى بعض المتقدمين بنعته بـ ( كاتب الحسن بن زيد )<sup>(٢)</sup>.

واشتهر أبو الغمر أيضاً بنسبته إلى المدينة، فوصف بـ ( المدني )، وقد يدل هذا على استيطانه إياها، أو طول مقامه بها، وليس في المصادر ما يدل على سنة وفاته.

والذي وصلنا من شعره بضع مقطّعات، يلفت النظر فيها كونها - إلا القليل - منصرفة إلى مدح الجُبْن والاعتذار للجناء، وذمّ الشجاعة وتسفيه الشجعان، وهو فيها يصرّح بأنه فرّار غير كرّار، ويفخر بذلك غير مبال بنقد الناقلين، يقول في إحداها<sup>(٣)</sup>:

ولأعلى الطعان بالصبار	لستُ غداةَ الكرّ بالكرّار
وما أبالي قبلوا اعتذاري	هانت عليّ سبّلاتُ العار
أنا طليق الرّكض والففرار	أو وسموني سِمةَ الغدّار
فلو تراني أو ترى إحضاري	فدبت نفسي منه بالإضمار
لخِلْتُني عجلانَ ذا انشمار	لا أعرف الليل من النهار
أحكم منه الصنع في المضمار	طرُفاً نجماً من وخزة البيطار
أو كنّجاء النّقين الطّيار	أو عدّو غير ما عثار

(١) ينظر: الأعلام ١٩١/٢

(٢) ينظر: المحاسن والمساوئ للبيهقي ص ٤٩٠، و بهجة المجالس ٤٨١/٢، ٤٨٣

(٣) بهجة المجالس ٤٨٣/٢، والإحضرار: ضرب من العدوّ، والنّقين: ذكر النعام.

ويعمد في بعض شعره إلى محاولة الإقناع بفضل الجبن على الشجاعة مستعيناً  
بالحجج العقلية، كما في قوله<sup>(١)</sup>:

ظَلْتُ تُشَجِّعُنِي ضَلًّا بِتَضْلِيلِ      وللشجاعة خطب غير مجهول  
هَاتِي شَجَاعًا بِغَيْرِ الْقَتْلِ مَصْرَعِهِ      أَوْجِدْكَ أَلْفَ جَبَانٍ غَيْرِ مَقْتُولِ  
الْحَرْبِ تُوسِّعُ مَنْ يَصْلِي بِهَا حَرْبًا      يُتَمُّ الْبَنِينَ وَإِثْكَالَ الْمُثَاكِيلِ  
وَأَسْمُ الْوَغَى اشْتَقْتُ مِنْ غَوْغَاءَ تَبْصُرُهَا      يَغْدُونَ لِلْمَوْتِ كَالطَّيْرِ الْأَبَابِيلِ  
وَلَا يَكْتَفِي بِهَذَا، بَلْ يَقْلِبُ الْحَجَجَ مَازِجًا إِيَّاهَا بِشَيْءٍ مِنَ السَّخَرِيَّةِ، مِثْلَمَا  
نَرَى فِي قَوْلِهِ<sup>(٢)</sup>:

إِنِّي أَضِنُّ بِنَفْسٍ لَا يُجَادُ بِهَا      والجود بالنفس أقصى غاية السرف  
مَا أَبْعَدَ الْقَتْلَ مِنْ نَفْسِ الْجَبَانِ وَمَا      أَحْلَهُ بِالْفَتَى الْحَامِي عَنِ الشَّرَفِ  
وَقَدْ اسْتَعَانَ لِهَذَا بِقَلْبِ الْبَيْتِ الذَّائِعِ<sup>(٣)</sup>:

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِنْ ضُنَّ الْجَوَادُ بِهَا      والجود بالنفس أقصى غاية الجود  
وَيَقْتَرِنُ بِجَبْنِ أَبِي الْغَمْرِ صَفَاقَةٌ وَجْهًا، لَا تَمْنَعُهُ أَنْ يَعْتَرِفَ بِالْفِرَارِ، غَيْرَ عَابِيٍّ  
بَلُومٍ وَلَا عَذَلٍ، كَقَوْلِهِ<sup>(٤)</sup>:

هَلْ غَيْرُ أَنْ يَعْدِلُونِي أَنِّي فَشِلٌّ      فَكُلُّ هَذَا، نَعَمْ فَاعْرِوْا بِتَعْدِيلِي  
وَقَوْلِهِ<sup>(٥)</sup>:

قَدْ هَانَ عِنْدِي لِسَانُ الْعَارِ وَالْعَدَلِ      فَلَسْتُ أَنْفَ مِنْ جَبْنٍ وَلَا فَشْلٍ

(١) المحاسن والمساوي ص ٤٩٠.

(٢) بهجة المجالس ٤٨١/٢.

(٣) البيت لمسلم بن الوليد صريع الغواني.

(٤) المحاسن والمساوي ص ٤٩١.

(٥) بهجة المجالس ٤٨١ / ٢.

غير أنه يورد آراءه تلك في سياق من الظرف والفكاهة، كما في قوله<sup>(١)</sup>:  
 اسمع أخبرك عن بأسِي بذي سلمٍ      خلافَ بأسِ المساعيرِ البهاليلِ  
 لما بدت منهمُ نخوي عَشَوَنةً      تشرّع الموت في عرضي وفي طولي  
 فقلت : ويحكمُ لا تُذهِبوا جلدي      رمحي كسير وسيفي غير مسلول  
 لما اتَّقيتهمُ طورا بذات يد      وانصعتُ أطوي الفلا ميلا على ميل  
 الله خلّصني منهم وسلّمني      حتّى تخلّصت مخضوب السراويل  
 وقوله أيضاً<sup>(٢)</sup>:

لست لدى الحرب بوقافٍ      ولا على القرْنِ بعطافٍ  
 قد أمّن الله عدوي فما      يخاف أرمحي وأسيافي  
 إذا رأيت الحرب من فرسخ      خذرفتُ رجلي أيّ خذراف  
 ويظهر لي أن أبا الغمر قد استفرغ جهده في الحديث عن الجبن والفرار تحسناً،  
 وعن الشجاعة والإقدام تقبيحاً، ولأجل هذا صار يورد الفكرة الواحدة مراراً،  
 فقولُه الآتي يشبه ما ورد قبل أسطر<sup>(٣)</sup>:

(١) المحاسن والمساوئ ص ٤٩١، والمساعير: الشجعان، والبهاليل: السادة، والعشوزنة: الشديدة الخلق العسيرة، وهي منصرفة هنا إلى الفرس أو الناقة. وجاء البيت الأخير في الأصل (الله خلصني منهم وفلسفتي) ولا معنى له، ولعل الصواب ما أثبتّه.

(٢) بحجة المجالس ٤٨٥/٢، وخذرفت رجلي: أسرع في المشي.

(٣) معجم الشعراء ص ٤٨٥ و بحجة المجالس ٤٨١ / ٢

إني بخلت بنفس لا يُجاد بها      ولست بالمال أفديها من البخل  
هيهات، تأبي لي التغير فلسفة      ترى حضور الوغى من أكثر الزلل  
متى رأيت شجاعاً مات بالأجل      ونال من لذّة الدنيا مدى الأمل؟  
كأن آجال شجعان الورى خلقت      في أنفـس البيض والخطيئة الذبُّـل  
إن من النادر أن نجد امرأً يتمدّح بالنقائص، ويفخر بانتفاء المحاسن، بله أن  
يسفّه ما استحسّنه الناس، ويرفع من قدر ما حقّروه، وقد عني بعض المصنّفين  
القدماء بالتأليف فيما قاله الأدباء في تحسين القبيح وتقبيح الحسن، كالشعالبي  
(ت ٤٢٩هـ) وإبراهيم البيهقي (ت بعد ٣٢٠هـ) وأبي نصر المقدسي (ت؟) <sup>(١)</sup>،  
ولكن أكثر ما يورده هؤلاء إنما قيل على سبيل قدح الخواطر حيناً، أو التماهر  
حيناً آخر، أو استجابة لعارض من عوارض الحياة التي تجعل المرء يرى الشيء  
على خلاف ما اعتاده الناس.

أما أبو الغمر فقد جاءت جُلّ مقطّعاته مُلحّةً على هذا المعنى، وهذا يشي بأنه  
يصدر فيها عن فلسفة ويقين، ولكن الأمر الذي لا يمكنني البتّ فيه هو: هل كان  
ذلك منه على سبيل الدعابة والمزّل، أم كان تصريحاً بخصلة نفسية وقرت في  
قلبه، واعتلجت بين جوانحه؟ وهل نعدّه شاعراً واقعياً لم يعمد إلى التظاهر بما  
ليس فيه، وإنما قال ما قال عن يقين راسخ وطبيعة متأصّلة؟

إن الجبن والفرار مما يحدث كثيراً، فالنفس مهما بلغت من الشجاعة لا بدّ أن  
يساورها التعلّق بالحياة، وقد حفظت كتب الأدب نماذج مما قاله الفرارون —

---

(١) يراجع: تحسين القبيح وتقبيح الحسن للتعالي، والمحاسن والمساوئ للبيهقي، واللطائف والظرائف  
لأبي نصر المقدسي. ومن المهم الإشارة إلى أن هؤلاء المصنّفين كانوا يكتفون بالاختيار والانتقاء  
دون الغوص في الأسباب أو الميل إلى التحليل.

وبعضهم معدود في الشجعان أو السادة الأشراف - ولكن أكثرهم يقرن حديثه عن ذلك بالاعتذار أو الأسف<sup>(١)</sup>، على خلاف المذهب الذي سار عليه أبو الغمر، والعرب لم تمدح الجبن، ولم تر في الفرار خصلة يمكن التمدح بها، غير أن الحضارة الجديدة التي طرأت عليهم، وغضارة العيش التي نعموا بها، حبّبت إلى بعضهم الركون إلى الدعة، وكرّهت إليهم الحرب.

وقد يكون أبو الغمر ممن أثاقل إلى الأرض، وعاش عيشة السكون والطمأنينة، ولعلّ اشتغاله بالكتابة والشعر جعله بعيداً عن ميادين القتال، ولكن إصراره على ذم الشجاعة ومدح الجبن يجعل الأمر مدار نظر وتأمل.

فقد يكون جباناً حقاً، لم ير في التصريح بهذه الخصلة مذمة ولا نقصاً، وقد يكون متظافراً، وجد في الإلحاح على ذكر هذه المعاني مجالا للقول ونهزة للإبداع، وفرصة للحظوة عند سيده الأمير العلوي الذي لا يبعد أن يكون أبو الغمر قد أنشد جُلّ قصائده تلك بين يديه؛ إتحافاً له وإطرافاً، وربما كان متجانباً، ولا بدّ - حينئذ - من داعٍ ذي مرّة دعاه إلى هذا، كأن يعلل عدم اشتراكه في الحرب ونحو ذلك، وربما كان داعية سلام، رأى في ذم الشجاعة وسيلة للتنفير من الحرب وويلاتها وشروورها.

ومهما يكن فإن حالة نفسية أملت عليه أن يستفرغ جهده في هذه المعاني، وهي التي أرجّح أنها سيطرت على تفكيره، وأخذت بمجامع لّبه، وساقته سوقاً إلى الإلحاح على تلك المعاني.

لقد أحبّ أبو الغمر أن يتطرّف بمدح الجبن، ووصف نفسه بذلك؛ حتى يشعر بشيء من التميز، فقد رأى نفسه - وهو المقتدر على قول الشعر - في

---

(١) ينظر مثلاً: العقد الفريد ١٣٩/١-١٤١ و: ديوان أبي دلّامة ص ٨٠



عصر كثير فيه الفحول الذين استحوذوا على الشهرة، كمروان بن أبي حفصة (ت ١٨٢هـ) والعباس بن الأحنف (ت ١٩٢هـ) وأبي نواس (ت ١٩٨هـ) ورأى نفسه بعيداً عن حاضرة الدولة وجمع الشعراء والرواة، محروماً مما يتمتع به هؤلاء وغيرهم، فوجد السبيل إلى الشهرة التي دغدغت إحساسه في تنكّب طريق القول فيما اعتاد الناس سماعه.

لقد استقرّت هذه الرغبة العارمة لديه في (اللاوعي) فانطلق يبحث عنها بهذه الوسيلة "ومن المسلمّ به أن الحرمان والألم يفجّران طاقات الإنسان في كثير من الأحيان، وينشّطان موهبته الفنية"<sup>(١)</sup>.

وقد شاء أبو الغمر أن يُظهر براعته في الشعر بطروق ما لا يُطرق، فعرض هذه الخصلة - أعني الجبن والفشل - عرضاً ظريفاً، ممزوجاً بحجج عقلية، مغلفاً بالجزالة، فجاءت طريفة مائعة، وسواء أكان يصدر في ذلك عن صراحة وواقعية، أم عن ادّعاء وتظاهر؛ فقد حقق لرغبته أو لبعضها الارتواء، حين ألحّ مختارو الشعر ومدوّنو الأدب من بعده على انتقاء بعض قصائده في هذا السبيل. وأنطلق الآن إلى شاعر آخر وجدت في نتاجه ظاهرة يجدر الوقوف بها وتأملها، وهو مُخَلَّد بن بَكَار الموصلي (ت بعد ٢٣٢هـ) الذي ضنّت المصادر بذكر الكثير من أخباره وأشعاره، غير أن ما بقي منها ذو دلالات على سائره، ومما يُعرف عنه أنه مدح كثيراً من معاصريه وتكسّب بشعره، وكان مختصاً بالسيد التليدي (ت ٢١١هـ) الذي ولي الموصل للمأمون (ت ٢١٨هـ).

---

(١) إضاءات في النقد الأدبي ص ١٨٦-١٨٧

وكانت مُخَلَّد علائق مع بعض الشعراء، و أبرزهم أبو تمام (ت ٢٣٢هـ) الذي كان صديقا له، ولكن شهرة أبي تمام وسيرورة شعره قلبت ودَّ مُخَلَّد وصداقته عداوة، فأذهب مُنْتَه وأفرغ جهده في هجاء أبي تمام والخط منه، وهذا هو ما ينبغي الوقوف به.

إن تاريخ المهجّائين في الآداب المختلفة- بعامّة- يفيد أهمّ قاسوا من الحياة ما بَعْضُها إليهم، وجعلهم يحقدون على كل ذي نعمة<sup>(١)</sup>، والنعمة التي حسد مَخَلَّد أبا تمام عليها هي الشهرة وذبوع الذكر، وقد كان مَخَلَّد حريصاً عليها، ولكنه كان نجماً أخبث شمس أبي تمام ضوؤه ، فجعله مادّة لهجاء مقذع، لم يراع فيه حرمة ولا أدباً.

فمن هجائه الذي يمكن إيراده لخلوّه من الفحش قوله<sup>(٢)</sup>:

ويلك من دلاّك فى نسبة قلبك منها الدهر مذعور

لو ذكرت طاء على فرسخ      أظلم في ناظرِكَ النور

وقد يهجو أبا تمام بما برع فيه، فيُحيل إحسانه في الشعر إساءة، يقول (٣):

يا نبى الله فى الشع — ر ويا عيسى بن مریم

أنت من أشعر خلق (م) الله ما لم تتكلم

ولا شك في أن انتقاص المرء من خلال تكوين شأن ما رفعه الناس لأجله، يضع أيدينا على ملمح نفسي دقيق، فهذا الشاعر الهائج المتقد حسداً آثر أن يضرب خصمه فيما ظنه مقتلاً، فوضع ميسم الهجاء على شاعرية أبي تمام مهوَّناً

(١) ينظر: الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ص ٣٢.

(٢) أخبار أبي تمام ص ٢٣٦.

(٣) المصدر السابق ص ٢٤١.

منها، حاطاً من شأن صاحبها، وكأنه يقول للناس: إن ما أعجبكم من شعره لا قيمة له، وإن عند غيره من الشعراء- وهو يعني نفسه في المقام الأول- ما يفوقه إبداعاً.

لقد كان مخلد يشعر بالنقص تجاه أبي تمام؛ ويحس بأنه مضطهد وأن شاعريته مكبوتة، وهو يرى أبا تمام يستحوذ على المجد، وينال من عناية الساسة والرواة والنقاد ما كان يطمع هو فيه؛ فنأصبه العدا، وألح على الهجاء الشخصي، وجعله متنفساً لما يعتل في صدره من الحسد.

وهذا الهجاء الشخصي الذي يراه بعض النقاد أخطأ أنواع الهجاء، ويعدّه بعضهم صورة مضطربة هائجة غير مهذبة للغضب<sup>(١)</sup> لم يخل من خيال غريب وإن ظلّت معانيه محدودة، فهو يقول مثلاً<sup>(٢)</sup>:

لو امتخطت وبرّة وضبّا  
وامتشّت اليربوع نيا صلبا  
ما كنت إلا نبطيّاً قلبا

ففي البيت الأول تصوير مدهش، بلغ به مخلد الغاية في الهزء بصاحبه، وهو يريد السخرية بانتساب أبي تمام إلى العرب، وأنه لو صار- لشدة تظاهره بالانتماء إليهم- يُخرج الوبرة والضب من أنفه إذا امتخط؛ لما خرج عن أصله النبطي، ومن العجيب أن يعتمد مخلد إلى هجاء أبي تمام بهجنة النسب؛ مع أنه هو

(١) ينظر: الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ص ١١٥-١١٦

(٢) أخبار أبي تمام ص ٢٣٦-٢٣٧ والوبرة دوية صحراوية على قدر السنور، وامتشت: أصله امتششت، أي بالغت في مص عظامه، والقلب: المحض الخالص.

أيضاً غير عربي المحتد، ولعله رأى في هذا الأمر سلاحاً لا يمكنه التفريط به في مجتمع يعلي شأن النسب، وقد يتوصل به بعضهم إلى زحزحة الخصوم عن مقام الصدارة في متدييات العلم ومجالس الأمراء.

ويسبدو أن شدة الغيظ واستفحال الحسد قد أوقدا في نفسه شعلة الإبداع، فجعله يُغرب في ذلك التصوير الذي هو أقرب إلى ما يسمّى (الصورة السريالية)، ثم تروقه هذه الطريقة في التصوير، ويظنها مصيبة غريمه في مقتل؛ فيلجّ عليها في قطعة أخرى، إذ يقول:<sup>(١)</sup>

أنت عندي صليبة، كم تصيح      شعر فخذيك والمفارق شِيحُ  
عينك القاصعاء، أنفك دائماً      وأذنك نافقاء فسيح

لقد أيقن مَخْلَدُ بضعف موقفه وهو يناوش أبا تمام الذي سكت عن الرد عليه، ورأى أن الخطّ من فن أبي تمام والتهوين من عبقريته لن يطفئ نار الغيرة والحسد في قلبه؛ فانصرف إلى بعض المغامز في سيرته، وحشا هجاءه بما قدر عليه من الفحش والقذع<sup>(٢)</sup>، ولم يتورّع عن قذفه بالعظائم "ومتى غلا الشاعر بالقذف بأدناس التبذل والخلاعة، فهناك عيان محققان، أحدهما: عيب البيئة التي أشاعت تلك الأدناس... والثاني: تبحث عنه في قائل الهجو ومدمنه؛ فإنه لولا عيب فيه لما اضطر إلى الهجاء ولا أدمنه وأفرط فيه"<sup>(٣)</sup>

وهكذا يبدو من ربط إبداع مَخْلَدُ بنفسيته أثرُ ما اعتلج في قلبه من الغيظ والحقد والحسد، وقد كانت أحلام الشهرة والمجد تدغدغ إحساسه، ولكنها

---

(١) الأشباه والنظائر ٣١٤/٢ والصليبة: الخالص النسب، والقاصعاء والنافقاء: مدخلا حجر اليربوع، والدأماء: البحر.

(٢) ينظر مثلاً: أخبار أبي تمام ص ٢٤٠-٢٤١

(٣) ابن الرومي حياته من شعره ص ١٩٣

كَبَتْ دون أن تصل به إلى ما كان يطمح إليه؛ فسعى إلى تحقيق رضا نسي من خلال إفراغ شحنات التوتر والغضب، محاولاً تحقيق بعض رغباته المكبوتة في (اللاشعور).<sup>(١)</sup>

أما الشاعر الثالث فهو أبو العَبَر الهاشمي (ت نحو ٢٥٠هـ) وقد شُهر بأمر أشدّ غرابة، وقبل أن أعرض له أقف وقفات مختصرة عند بعض ملامح حياته التي لا يُعرف عنها الكثير.

أما اسمه فمحمد بن أحمد بن عبدالله بن عبد الصمد الهاشمي، وينتهي نسبه إلى العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، ويلقب بـ(حمدونا الحامض)<sup>(٢)</sup>. وقد وصف بأنه من آدب الناس، وأنه لم يُرَ قطّ أحفظ منه لكل عين، ولا أجود شعراً، ولم يكن في الدنيا صناعة إلا وهو يعملها، وكان حافظاً أديباً<sup>(٣)</sup>. فهو إذاً رجل شريف النسب والحسب، ذو علم وأدب واسع ومعرفة ومهارة، وكان ينظم الشعر الجيد، كمثل قوله<sup>(٤)</sup>:

لا أقول: الله يظلمني      كيف أشكو غيسر متهم؟  
وإذا ما الدهر ضعضعني      لم تجدني كافر النعم

---

(١) ينظر: التفسير النفسي للأدب ص ٤٨، وقد جمعت ما ينسب لمخلد من الشعر وتوسعت في دراسته وتحليله في بحث مستقل. ينظر: مخلد بن بكار الموصلي، لمحات من إبداعه وما تيسر من شعره، مجلة عالم الكتب، مج ٢٤ ع ١-٢ رجب وشعبان ١٤٢٣هـ.

(٢) ينظر: الأغاني ٢٠/٢٢٤ و: معجم الأدباء ١٧/١٢٢ و: أشعار أولاد الخلفاء ص ٣٢٣

(٣) ينظر: طبقات الشعراء ص ٣٤٢ و: معجم الأدباء ١٧/١٢٢-١٢٣، وهذه النعوت والأوصاف العالية كانت في بدء أمره بلا شك، وذلك قبل أن يؤثر الهزل ويميل إلى التحامق، فلا تناقض بين ما وصف به هنا وبين قول المأمون: إنه عار على بني هاشم.

(٤) الأغاني ٢٠/٢٢٥ و: معجم الأدباء ١٧/١٢٣

قنعت نفسي بما رزقت وتنأهت في العلا هممي  
ليس لي مال سوى كرمي وبه أمني من العدم  
فهذا فخر يدل على نفس مؤمنة أيّبة قانعة، ومن شعره في الغزل قوله<sup>(١)</sup>:

بأبي من زارني مختفيا      خائفا من كل حسّ جرعا  
رصد الخلوة حتى أمكنت      ورعى السامر حتى هجعا  
قمر تمّ عليه حسنه      كيف يخفي الليل بدرا طلعا  
ركب الأهوال في زورته      ثم ما سلّم حتى ودّعا

ومن الهجاء قوله<sup>(٢)</sup>:

رأيت من العجائب قاضيين      هما أحدوثة في الخافقين  
هما اقتسما العمى نصفين فذا      كما اقتسما قضاء الجانبين  
هما فال الزمان بملك يحيى      إذ افتتح القضاء بأعورين  
وهذا الشعر يدل على موهبة أصيلة وطبع متدقّق، ولكن العجيب في أمر هذا  
الشاعر أنه ترك الجدّ وآثر الهزل، وبالغ في ذلك حتى صار أكثر كلامه - من  
شعر ونثر - ضرباً من التحامق.

والذي دعاه إلى ذلك هو طلب الشهرة بلا ريب؛ فقد ذكر أنه كان " يقول  
الشعر الجيد في أول عمره "، ولكنه " رأى أن شعره مع توسطه لا ينفع مع  
مشاهدته أبا تمام والبحثري وأبا السّمط بن أبي حفصة "<sup>(٣)</sup>.

(١) مختار الأغاني ٩٥/١١ - ٩٦.

(٢) الأغاني ٢٣٠/٢٠ - ٢٣١، و: فوات الوفيات ٣٠٠/٣.

(٣) الأغاني ٢٢٤/٢٠، وانظر: مختار الأغاني ٩٥/١١.

قيل عنه: "إلا أنه لما نظر إلى الحمافة والهزل أنفقَ على أهل عصره، أخذ منها وترك العقل، فصار في الرقاعة رأساً"<sup>(١)</sup>، و"نفق بذلك نفقاً كثيراً، وجمع به ما لم يجمعه أحد من شعراء عصره المجيدين"<sup>(٢)</sup>. والقول الأول أقرب إلى تفسير ما طرأ عليه من تغير بل انقلاب؛ إذ إن وجود الشعراء المشهورين الذين استحوذوا على المجد في زمنه، جعله يبحث لنفسه عن سبيل يصل من خلالها إلى مآربه، وليست القضية في رواج الهزل على الإطلاق؛ فالجدّ عند معاصريه أروج من الهزل، ولولا ذلك لما برع أولئك المشهورون من شعراء وكتاب، ولكنهم أرادوا الهزل في مجالس الخلفاء، وبه يكون نديماً ظريفاً يأنسون به، ويتخذونه وسيلة لهو وضحك وعبث.

ومما يدل على أن تحامق أبي العبر نشأ من الرغبة في لفت نظر الناس إليه، وحتى يُرى مكانه، افتعاله بعض الحماقات، كتغيير الكنية من (أبي العباس) إلى (أبي العبر)، فالكنية الأولى يشاركه فيها كثير من الناس، أما الأخرى فقد صارت علماً عليه، ثم زاد أبو العبر تحامقاً فجعل يزيد في كنيته كل سنة حرفاً، فمات وهو (أبو العبر طرد طبك طلياري بك بك بك)<sup>(٣)</sup> وما كنت لأورد هذه الرقاعات - كما ينعتها الأقدمون - لولا علاقتها الوثيقة بفهم نفسية هذا الرجل.

ثم إن أبا العبر عمد إلى الهزل في محاوراته وأجوبته، قيل له: "لم صار دجلة أعرض من الفرات؟ والقطن أبيض من الكمأة؟ فقال: لأن الشاة ليس لها منقار،

(١) طبقات الشعراء ص ٣٤٢.

(٢) معجم الأدباء ١٧/١٢٣.

(٣) فوات الوفيات ٢٩٨/٣.

وذنب الطاووس أربعة أشبار" <sup>(١)</sup> وبين أن السؤال نفسه لا يخلو من تحامق، وكأنما وجد أبو العبر من يسايره ويستخرج كمائن صدره بمثل هذه الأسئلة. وقد يجعل أبو العبر جوابه هازلاً في الظاهر، وفي باطنه الجدّ، فقد سأله أبو العباس ثعلب (ت ٢٩١ هـ): "الظبي نكرة أم معرفة؟ فقال: إن كان مشوياً موضوعاً على المائدة فهو معرفة، وإن كان في الصحراء فهو نكرة" <sup>(٢)</sup> وهذا جواب غاية في البراعة، وفيه دليل على بديهة أبي العبر وقدرته على اختيار الجواب الملائم للمخاطب.

وقد دلّت أخبار أخرى على دقّة ملاحظته، منها أن المأمون قال عنه يوماً - وكان حاضراً - : ما أراه إلا مجنوناً، فقال أبو العبر: إنما امتخطتُ حوت، فقال: ويحك! ما معنى قولك؟ فقال: زعمتُ أني مجتُ نون، وإنما امتخطتُ حوت <sup>(٣)</sup> ودخل يوماً على مالك بن طوق (ت ٢٥٩ هـ)، ومالك لا يعرفه، فقال: أبو من؟ فقال: أبو كل بصل، فغضب مالك، وكانت كنيته أبا كلثوم. <sup>(٤)</sup>

لقد أراد أبو العبر أن يُشهر بهذه الأجوبة والنوادر والحماقات حتى ينال الخطوة، ويتوصل إلى مجالس العلوية، وقد تحقق له بعض ما أراد، ففي أخباره ما يفيد أنه حظي عند المتوكل (ت ٢٤٧ هـ) ويبدو أنه قد اتخذه ملهاً، فكان يرمي به في المنجنيق إلى البركة، فإذا علا في الهواء قال: الطريق، جاءكم المنجنيق، حتى يقع في البركة، فيطرح عليه الشباك ويُصطاد ويخرج وهو يقول <sup>(٥)</sup>:

(١) طبقات الشعراء ص ٣٤٣

(٢) نثر الدر ٢٩٣/٧

(٣) الأغاني ٢٠/٢٢٩، و: فوات الوفيات ٢٩٨/٣

(٤) نثر الدر ٢٩٣/٧

(٥) فوات الوفيات ٣٠٠/٣



ويأمر بي ذا الملك  
فيطر حني في البرك  
ويصطادني بالشَّـبَك  
كأنِّي بعضُ السمك  
ويضحك لي: هكّ هك

ولم يكن أبو العبر يرى في ذلك بأساً، ما كان يحقق رغبته التي ما فتئ يراودها بحماقاته التي صار بها أضحوكة بين الناس، حتى بلغ الأمر به أن يجبسه المأمون ويقول عنه: "هذا عار على بني هاشم"<sup>(١)</sup>.

ولم يزل أبو العبر يسرف في التحامق في شعره، حتى نعته بعضهم بأنه صاحب الشعر الأحمق والكلام المختلق وأنه أبرد الناس بلا مدافع<sup>(٢)</sup>، ووصف آخر أشعاره بأنها "كثيرة المحال مفرطة السقوط، لا معنى لذكرها"<sup>(٣)</sup> وله قصيدة مزدوجة "فيها ما لا يُذكر من حماقات واختلال وبرد وانحلال ... من غير تقويم ولا إعراب، منها:

أتنسى متى كان	نصيرك قهرمان
فيأتيك بالسويق	من السوق والدقيق" <sup>(٤)</sup>

ويبدو أن شهرة أبي العبر بهذه الحماقات جعلت بعض الرواة يتزيدون في أخباره، فقد نسبت إليه نوادر هي إلى الخيال المريض أقرب، ومن المستبعد

---

(١) السابق ٢٩٨/٣.

(٢) معجم الأدباء ١٧/ ١٢٥.

(٣) الأغاني ٢٠/ ٢٢٤، و: أشعار أولاد الخلفاء ص ٣٢٤.

(٤) جمع الجواهر ص ١٤.

حدوثها<sup>(١)</sup>؛ لأنه - كما وُصف - يتجاهل وليس بجاهل، ويتحامق وليس بأحق، بل إن بعض معاصريه نعته بالأديب الفاضل.<sup>(٢)</sup> ومن الشائع أن يزيد الرواة في أخبار الظرفاء فينسبوا لهم ما لم ييدر منهم.<sup>(٣)</sup>

ويبلغ التحامق بأي العبر مداه، فيصنف كتاباً يسميه (جامع الحماقات ومأوى الرقاعات)،<sup>(٤)</sup> ولا أدري أهى حماقات شعرية أم نثرية؟، ومن المنقول أن له في النثر تحامقاً وتخليطاً ومجانةً، كالذي في شعره، فمن ذلك ما كتبه إلى أبي العجل - وكان ينهج نهج أبي العبر - "من أبي العبر الرفيع لأبي العجل الوضع، إني ولّيتك خراج ضياع الهواء، ووكلت بك البلاء، وفوّضت إليك كيل ماء الأنهار، وإحصاء حدقات البوم، وورق الزقوم، وقسمة الشوم، بين الهند والروم، وخلعت عليك خفيّ حنين، وقميصاً من الدّين، وسيفاً من حنين، وسراويل من شين، وعمامة من سُخنة عين، وكتب يوم الأربعاء غداة الأحد بعد العصر لست مضين من شهر ربيع الأول سنة ثمانين إلا مئتين"،<sup>(٥)</sup> ومنه ما كتبه لبعض أصحابه: "أما قبل فأحكم بنيانك على الرمل، واحبس الماء في الهواء، حتى يغرق الناس من العطش".<sup>(٦)</sup>

وهذا أسلوب من اقتدر على التفنن في القول، وإن كان يعتمد إلى جمع المتناقضات، وقلب الكلام، وهو محمول - في هذه الرسائل - على الممازحة والدعابة مع الأصحاب، غير أنه لا يخرج في جملته عن التحامق.

(١) ينظر: الأغاني ٢٠/٢٢٧، و: أشعار أولاد الخلفاء ص ٣٢٧-٣٢٨.

(٢) ينظر: أشعار أولاد الخلفاء ص ٣٣٠.

(٣) ينظر: الأدب الفكاهي ص ٩٧.

(٤) الفهرست ص ٢١٨.

(٥) نثر الدر ٧/٢٩١.

(٦) جمع الجواهر ص ٨١.

إن ذلك التغير الذي طرأ على شخصية أبي العبر، هو تطبيق عملي لما شاع على  
ألسن أدباء عقلاء، يشيرون فيه إلى كساد أهل العقل، ونفاق أهل الجهل، فهذا  
أبو تمام يقول<sup>(١)</sup>:

ولو كانت الأقسام تجري على الحجي هلكن إذا من جهلهن البهائم  
والمتني (ت ٣٥٤هـ) يقول<sup>(٢)</sup>:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم  
والمعري (ت ٤٤٩هـ) بعدهما يقول<sup>(٣)</sup>:

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا تجاهلت حتى ظنّ أني جاهل  
وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) يذهب إلى أبعد من ذلك<sup>(٤)</sup>:

كبر على العقل يا خليلي ومل إلى الجهل ميل هائم  
وكن حمارا تعش بخير فالسعد في طالع البهائم

لقد صرّح أبو العبر بأن الذي دعاه إلى هذا السخف والعبث هو الرغبة في  
التّفاق والخشية من الكساد، فهو طالب رزق في مجالس الخلفاء الذين كانوا -  
كما يقول الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) - يحتاجون إلى الوضع للهو، والمضحك  
لحكايته، مثلما يحتاجون إلى الشجاع لبأسه، والناسك لعظّته، ويطلبون أهل  
الهزل كما يطلبون أهل الجدّ والعقل.<sup>(٥)</sup>

---

(١) ديوانه ص ٢٦٩.

(٢) ديوانه ١٢٤/٤.

(٣) سقط الزند ص ١٩٤.

(٤) فوات الوفيات ٣٧٠/٢.

(٥) ينظر: الأدب الفكاهي ص ٩٦ والنص من كتاب (التاج) المنسوب للجاحظ.

لقد رأى أبو العبر نفسه قادراً على الإبداع - وما روي من جدّه يشي بهذا- ولكنّ زمنه غصّ بالمبدعين المشهورين؛ فرأى أن يخالف طريقتهم، وأن يبالغ في إظهار الحمق<sup>(١)</sup>؛ علّه يجد موطن قدم في زحام الأقدام، وقد حقق لنفسه بعض رغباتها، فسار ذكره بين معاصريه، وأبرز دوافع التعجب منه كونه هاشمياً من السلالة الحاكمة في عصره، وذلك بلا شك أدعى للغرابة، وأشد للاستنكار، وقد مرّت كلمة المأمون التي أبان فيها ضيقه من تحامق أبي العبر، ولعل هذا ما كان يطمح إليه: أن يلفت نظر الخليفة، ويُجرى اسمه على لسانه.

ويُفاد من أخبار حماقات أبي العبر استظهار بعض ما شاع بين أدباء ذلك العصر، من الإسراف في اللهو والجمانة، وبخاصة من كان منهم مغموراً؛ لا يجد وسيلة يتوصّل بها إلى الشهرة، وقد يجد من الإحباط جرّاء انصراف الناس عن تقدير موهبته ما يجعله يؤثر تلك الطريقة.

يقول الحصري (ت ٤٥٣هـ): "قد يحتاج العاقل المميّز والفاضل المبرز إلى الهزل، كاحتياجه إلى الجدّ"<sup>(٢)</sup>، والحاجة المرادة هنا تنبع من الشعور بانتقاص الحظ، والرغبة في إظهار الإبداع، فكم من عاقل ذي قدرة ومعرفة لم يجد من معاصريه إلا ازوراراً، وكم من مبدع آله ألا يُنظر إليه نظرة التقدير، وكل ذلك مدعاة للانصراف عن الجد إلى الهزل، أو الانطواء والكتمان، أو اليأس والتشاؤم، ولعل مبعث الحاجة أيضاً ما يحيك في صدر الأديب المبدع من أسى على غروب آمال، وتهاوي رغبات.

(١) ينظر: الأغاني ٢٠/٢٢٥

(٢) جمع الجواهر ص ١٦

ومن هؤلاء الذين سلكوا مسلك أبي العبر - وإن لم يبلغوا مبلغه في التحامق، ولم يكونوا مثله في شرف النسب - أبو العنيس الصيمري (ت ٢٧٥هـ) الذي وصل بالهزل إلى أن صار حظياً عند المتوكل.<sup>(١)</sup>

ومثله أبو العجل (ت؟) الذي يعلل ميله إلى التحامق بقوله<sup>(٢)</sup>:

عذلوني على الحماقة جهلاً      وهي من عقلهم الذِّ وأحلى  
لو لقوا ما لقيتُ من حُرْفَةِ العقف      ل لساروا إلى الحماقة رَسلاً  
أذعن الناس لي جميعاً وقالوا      يا أبا العجل مرحبين وسهلاً  
فبها - لا عدمتها - صرتُ فيهم      سيداً أتقى ورأساً ورجلاً  
وكل أولئك الشعراء يمثلون ظاهرة اجتماعية، شاعت في العصر العباسي، وهي ذات ارتدادات نفسية، وأحسب أن دراستها تضيء جوانب من تاريخ العرب الاجتماعي، مثلما تكشف بعض الدفائن النفسية وعلاقتها بالإبداع، كما أنها تلفت النظر إلى طائفة من الأدباء الذين جاز مؤرخو الأدب ودارسوه عليهم، فلم يلتفتوا إلى نتائجهم، ولم يعنوا بتحليله وتقويمه والبحث عن دوافعه ومسبباته، إلا في لمحات عجلة، وإيماضات نادرة.

ومهما يكن فإن هذه الطائفة المؤثرة للحمق، المزورة عن العقل وجدت في هذا الصنيع مجالاً لإظهار إبداعها من جهة، وسيلاً للانتقام من بعض المشهورين الذين استحوذوا على عناية الرواة، ولقوا من الخطوة ما لم يلقوه، وقصة أبي العنيس في مجلس المتوكل لما هزئ بالبحثري، معارضاً قصيدته:

من أي ثغر تبتسم      وبأي طرف تحتكم؟

(١) ينظر: الأغاني ٢٠/٢٢٦

(٢) طبقات الشعراء ص ٣٤١

بقصيدة على وزنها ورويها ، قالباً معانيها وألفاظها إلى المجون الفاحش  
والهجاء المقذع<sup>(١)</sup>، تدلّ على بعض ما أومأت إليه.

أما الشاعر الرابع الذي أتناوله في هذه النظرات فهو: أبو الشَّبل البرجُمي  
(ت؟) الذي لا يُعرف عنه - كسابقه - سوى القليل، ومن هذا القليل:

أن اسمه :عصم بن وهب بن عصمة، من بني تميم، وكان مولده بالكوفة،  
ونشأته بالبصرة، ولعله أقام بعد ذلك في بغداد<sup>(٢)</sup>.

وُصف بأنه طَبّ نادر كثير الغزل ماجن<sup>(٣)</sup>، وأنه "إذا حضر أضحك الشكلى  
بنوادره"<sup>(٤)</sup>، وبعض أخباره يدل على استحكام الظرف فيه، فقد تغزّل بجارية  
له اسمها (سكّر) بقوله<sup>(٥)</sup>:

أنا في دعوة سكّر      والهوى ليس بمنكر  
كيف صيري عن غزال      وجهه دلوّ مُقيّر؟

وقدم إلى (سر من رأى) في أيام المتوكل ومدحه، ونفق عنده بإيثاره العبث،  
وخدمه وخُصّ به، فأثرى وأفاد<sup>(٦)</sup>، ويبدو أن بدء أمره كان في زمن المأمون،  
ويذكر بعض مترجميه أنه عُمّر طويلاً حتى هتم، وامتنع عليه الشعر.<sup>(٧)</sup>

---

(١) ينظر: معاهد التنصيص ٢٤١/١.

(٢) ينظر: الأغاني ٤٠/١٣ و: معجم الشعراء ص ٢٧٥ و: طبقات الشعراء ص ٣٧٩ و: تاريخ التراث  
العربي (سزكين) مج ٢، ج ٣-٤، ص ٩٩.

(٣) ينظر: الأغاني ٤٠/١٣.

(٤) السابق ٤٣/١٣.

(٥) السابق ٤١/١٣.

(٦) ينظر: السابق ٤٠/١٣.

(٧) ينظر: معجم الشعراء ص ٢٧٥.

وقد عُرف بالبديهة في الشعر، والجواب المسكت، والإسراف في الخلاعة  
والجون واللهو، والإقذاع في المهجاء إلى درجة تؤذي الأذواق السليمة<sup>(١)</sup>، ويظهر  
أنه كان شديد التبسُّط حتى مع الجواري، ففي بعض الأخبار أن إحداهن هجته  
شعراً<sup>(٢)</sup>، وكل هذه الأخبار مفيد في التعرف إلى شخصيته.  
وقد لفت نظري إلى نتاج أبي الشبل أمران: أحدهما كثرة غزله بالسوداوات،  
والآخر: رثاؤه ما لا يُرثى في العادة. وكلاهما يدل على ميله إلى تناول ما يهمله  
الشعراء؛ لأمر في نفسه، لعله الرغبة في لفت النظر، والحاجة إلى التميز.  
أما الأمر الأول فمنه قوله<sup>(٣)</sup>:

مشبهات الشباب والمسك تفدي — كنّ نفسي من نائبات الخطوب  
كيف يهوى الفتى الأديب وصال — بيض؟ والبيض مشبهات المشيب  
ولو توافرت لنا الصفة الخلقية لأبي الشبل، لأمكن تعليل هذا الميل تعليلاً  
أقرب إلى الدقة؛ إذ لو كان أسودَ دميماً لما صار في ميله إليهن غرابة، وذمّ  
البيض يصبح حينئذ ضرباً من المغالطة، غير أنه لو كان كذلك لنصّ عليه من  
ذكروا غرامه بالسوداوات، والذي أراه — من خلال النصوص القليلة التي بقيت  
له في التغزل بهن — أنه لم يكن أسود، ولعله كان في ضيق يد جعله لا يقدر  
على امتلاك الجواري البيض<sup>(٤)</sup>، وفي هذا ملمح نفسي، فكثيراً ما يعمد المرء إلى  
ذم الشيء حين لا يقدر عليه، وتفضيل نقيضه وإن قر في قلبه خلاف ما ينطق  
به لسانه.

(١) ينظر: الأغاني ٤٤/١٣، ٤٨ و: التذكرة الحمدونية ١٧٥/٥: العصر العباسي الثاني ص ٤٦٨

(٢) ينظر: طبقات الشعراء ص ٤٢٥

(٣) معجم الشعراء ص ٢٧٥

(٤) ينظر: الأغاني ٤٧/١٣-٤٨

على أن من الممكن أن يكون صادقاً غير مدّعٍ في ذلك الميل، ويبقى حينئذ  
تعليل كثرة لهجه بهن وإسرافه في تفضيلهن، وعلته - كما أسلفت - حبّ  
الانفراد والتميز.

أما الأمر الآخر الذي غري به وأكثر منه، فهو رثاء ما لم يُعهد رثاؤه، إذ إن  
له ثلاث مراثٍ طريفة، أولاها في رثاء سراج، والثانية في رثاء طيب أحق،  
والثالثة في رثاء ثلث قرطاس.

أما الأولى فقد تضمنت رثاء السراج، وهجاء الكباش الذي نطحه فكسره،  
ففي الرثاء قال<sup>(١)</sup>:

مسرجتي لو فديت ما بخلتُ	عنك يد الجود بالدنانير
ليس لنا فيك ما نقدّره	لكنما الأمر بالمقاديير
مسرجتي كم كشفت من ظلمٍ	جلوت ظلماءها بتقديير
إن كان أودى بك الزمان فقد	أبقيت منك الحديث في الدور

ثم قال هاجياً الكباش:

دع ذكرها واهجُ قرن ناطحها واسرد أحاديثه بتفسير  
ووصف قيامه على خدمته:

فلم أزل بالبنوى أسمّنه	والتبن والقتّ والأناجير
أبرد الماء في القلال له	وأثقي فيه كلّ محذور

ثم ذكر أنه انتقم لمسرجته بذبح الكباش قبل الأضحى، وجعل باقي عظامه  
للهررة والجوارح والكلاب:

(١) السابق ٥٠/١٣-٥١، و: التذكرة الحمدونية ٢٨٩/٤-٢٩٠.



ومزّقتَه المدى فما تركت  
واغتاله بعد كسرهما قدر  
واختلسته الحذاء خلّسا مع الغربان  
وصار حظّ الكلاب أعظمه  
ثم قال شامتا بكبشه:

يا كبش ذقْ إذ كسرت مسرحتي  
بغيت ظلما والبغي مصرع من  
أضحية ما أظنّ صاحبها  
لمدية الموت كأس تنحير  
جنى على أهله بتغيير  
في قسمه لحمها بما جور

وهو في أثناء ذلك لا يدع المحون - مثلما عهد عنه - وكذلك فعل في  
القصيدة الثانية التي رثى بها جارا طيباً أحق، ومما قال فيها<sup>(١)</sup>:

قد بكاه بول المريض بدمع  
ثم شقّتْ جيوههنّ القوارب  
كنت تمشي مع القوي فإن جا  
لهف نفسي على صنوف رقاعا  
واكف فوق مقلتيه ذروف  
سر عليه ونُحْن نوح اللهيف  
ء ضعيف لم تحتفل بالضعيف  
ت تولّت منه وعقل سخيف

أما القصيدة الثالثة التي رثى بها ثلث قرطاس، فقد قال فيها<sup>(٢)</sup>:

فكّر تعتري وحزن طويل  
ليس يبكي رسما ولا طللا محّ  
إنما حزنه على ثلث كا  
وسقيم أنحى عليه النحول  
كما تندب الربى والطلول  
ن لحاجاته فغالتته غول

(١) الأغاني ٤٢/١٣، والتذكرة الحمدونية ٢٨٩/٤ ونهاية الأرب ٨٧/٤.

(٢) الأغاني ٥٣/١٣-٥٤ والتذكرة الحمدونية ٢٩٣/٤.

وفيها يعدد فوائده:

كان مثل الوكيل في كل سوق      إن تلكاً أو ملّ يوماً وكيل  
كان للهّم إن تراكم في الصد      ر فلم يُشف من عليل غليل  
لا تلمني على البكاء عليه      إن فقد الخليل خطب جليل  
لقد عُدتّ هذه القصائد من المراثي الطريفة<sup>(١)</sup>، وكانت هي السبب في  
التفات بعض الدارسين إلى أبي الشبل، وهي جديرة بأن يوقف عليها؛ لأنها  
تدرج في الموضوعات المحدثّة في العصر العباسي، ولست مع من عدّ أشباه هذه  
القصيدة ذات (موضوعات تافهة)<sup>(٢)</sup>، لأن الشعرية تتجلى في الموقف من الشيء،  
لا في مادته وموضوعه، والنظر إلى الشعر على أنه لا يتناول سوى الأمور  
الجلال، يضطره إلى زاوية ضيقة، ويهدر كثيراً من إبداع الشعراء على مرّ  
العصور.

والوقفة المهمة عند قصائد أبي الشبل هي في ربطها بظروف منشئها وأحواله  
الاجتماعية والنفسية.

لقد كان أبو الشبل ذا موهبة شعرية متوسطة، وكان لإسرافه في اللهو  
والمجون وتهالكه على الملاذ أثر في انصرافه عن طروق الأغراض الشائعة عند  
الشعراء، فقد شغله اللهو عن مجاراتهم، وكان لتوسط شاعريته أثر في ذلك أيضاً.  
وأمثال أبي الشبل ممن آثروا المزمل لم يكونوا عاجزين عن القول الجِدِّ، ولكن  
كثيراً منهم يشيع عن نفسه الأضحاح والمهازل؛ حتى يجد لنفسه سبيلاً إلى  
بجالس الأمراء والعلية من القوم، فإذا بلغ أظهر ما يستطيعه من الجِدِّ، كما فعل

(١) ينظر: العصر العباسي الثاني ص ٢١٩.

(٢) ينظر: حول الأدب في العصر السلجوقي ص ٢٣٧.

أبو الشبل لما وصل إلى مجلس عبيد الله بن يحيى بن خاقان (ت ٢٦٣هـ) فقال  
يمدحه<sup>(١)</sup>:

رأيت عبيد الله أفضل سؤدداً وأكرم من فضل ويحيى بن خالد  
أولئك جادوا والزمان مساعد وقد جاد ذا، والدهر غير مساعد  
فهو إذا قادر على الجد، ولكنه رأى أنه لن يقدر على مجارة الفحول، فبحث  
عن شيء يميزه عنهم، ويضمن له بقاء الذكر، فهدته رغباته العارمة في ذلك إلى  
أن يجنح إلى العادي والمهمّش، فيسبغ عليه نعوتاً عُهدَ بجيئها في الحديث عن  
الأمر العظام.

وأنا أزعّم أن هذا المذهب - أعني تناول العادي والمهامشي، وتفضيل غير  
المفضّل عند الناس - قد استغرق جلّ شعر أبي الشبل، وأكاد أجزم بهذا مع أنه لم  
يصلنا من شعره إلا نتف ومقطعات؛ ذلك أن من يتأمل قصائده تلك يجدها  
تشكّل ثلثي ما تيسّر من شعره، ورثائياته العجيبة وحدها تزيد على النصف.

ومن المحتمل أن تنشأ بين الشاعر المغمور - مطلقاً - وما تألفه عينه من متاع  
وأثاث وحيوان مستأنس وطير روابط وجدانية؛ فهو لا ينفك منطرحاً بينها  
ناظراً إليها، ولا يجد ما يجده غيره من فرص ونُهز للوصول إلى المتديّات  
والجالس؛ ولذا كثرت عند المغمورين مراثي غير الإنسان، والحيوان بوجه  
خاص<sup>(٢)</sup>.

وأبو الشبل واحد من هؤلاء، فقد نشأت بينه وبين سراجهِ وقرطاسه ألفة،  
حتمّها طول ممارسته الكتابة في ذلك القرطاس على ضوء ذلك السراج، فصار

(١) الأغاني ٤٥ / ١٣

(٢) ينظر : الحيوان في الأدب العربي ١٠٣ / ٢، ١٧٨ - ١٨٠، ١٨٧

جزءاً من عالمه الشعري، محصوراً فيها، ولا يبعد أن يكون رثاء هذه الأشياء من قبيل الرمز، مثلما قيل في مراثية ابن العلاف (ت ٣١٨هـ) للهر<sup>(١)</sup>، ولكن الجرم غير ممكن، نظراً لقلة ما يعرف عن حياته، والأحداث الخاصة التي عاشها. ومن المهم أن أشير إلى أن في بعض القصائد تنكياً للغرض الرئيس، وخروجاً إلى التعريض أو التصريح، فقد هجا في قصيدته اللامية - التي رثى بها القرطاس - رجلاً يكنى أبا الخطاب، ويبدو أنه كان يتهمه بسرقة القرطاس، وذلك قوله<sup>(٢)</sup>:  
ليس كالكاتب الذي بأبى الخط - ساب يُكْنَى قد شابه التطفيل  
وهذا يعضد القول بأن هذه القصائد لم تأت لمجرد الإضحاك أو العبث، بل قد اتخذ الهزل فيها وسيلة للجد، والناس يستمعون إلى اللهو والباطل أكثر من استماعهم لعزائم القول، فإذا جيء بالجد في تضاعيف الهزل، كان ادعى للاستقرار في أذهانهم، وأقرب للتأثير فيهم، ولعل هذا بعض ما كان يقصده أبو الشبل.

ومهما يكن فقد جدّ أبو الشبل في لهوه، وهزل في جدّه، وسعى إلى سلوك طرائق قلّ سالكوها، والفحول المشهورون من الشعراء يرون في تناول تلك المعاني خطأ من شاعريتهم، وقد يندر من أحدهم تناول أشباهها، أو التبسط في الألفاظ والأساليب، ولكنه يجعلها في منزلة دنيا من شعره، مثلما يروى عن بشار بن برد (ت ١٦٧هـ) أنه استنشد قوله:

إن سلمى خلقت من قصب      قصب السكر لا عظم الجمل

فغضب وضاح: "من هذا الذي يقرعنا بأشياء كنا نعبث بها، ويأتي برذال شعرنا وما لم نردّ به الجيد؟"<sup>(٣)</sup>

(١) ينظر: المرجع السابق ٣/ ١٨٠-١٨١

(٢) الأغاني ١٣/ ٥٣

(٣) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ص ٣١٢

وقد يراها بعضهم خاصة بفئة يقل استيعابها للشعر، مثلما يروى عن بشار  
أيضاً أنه قيل له: إنك لتحيء بالمهجن، قال: وما ذاك؟ قيل: إنك تقول:  
إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو مطرت دما  
إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ذرى منير صلى علينا وسلما  
ثم تقول:

ربابة ربابة البيت تصب الخل في الزيت  
فقال: كل شيء في موضعه، وربابة هذه جارية لي، وقولي هذا أحب إليها  
من ( قفا نبك )<sup>(١)</sup>.

ومهما يكن فقد سعت من خلال هذه النظرات في شعر هؤلاء نفر من  
المغمورين إلى الإلماح إلى هذه الظاهرة وكشف أبعادها، أما الظاهرة فهي أن  
كثيراً من الأدباء يجدون أنفسهم في عصر زاهر بالمشهورين الفحول، فيشعرون  
بخفوت أنجمهم عند توهج شمس أولئك، فلا يلتفت إليهم ولا يُعَبَأُ بهم، ولا  
بشعرهم ولا أدبهم.

وهذا الوضع يورث في نفس الأديب المرهف عقدة، فهو يحب أن يشار إليه  
بالبنان، ويطمع في الخطوة عند أولي السلطان والمال، ولكنه لا يجد وسيلة توصله  
إلى ذلك، فقد استحوذ المشهورون على المجد، واحتصوا بالبريق واللمعان.

ولذلك يعمد هؤلاء المغمورون المغفلون ( بإسكان الغين وفتح الفاء ) إلى  
محاولة لفت النظر إلى أدبهم ، باتباع مبدأ ( خالف تُذكر ) فيخالف بعضهم عرفاً  
سائداً، ويتوفّر آخرون على معانٍ محدودة، وقد يخرج بعضهم إلى ذم نفسه  
وتنقصها، بدلا من مدحها والثناء عليها، وقد يقلب بعضهم حياته رأساً على

(١) ينظر: السابق ص ٣١٣

عقب، لشدة ما يشعر به من الإحباط واليأس عندما يعجز عن الظهور، أو حينما لا يجد من أهل زمانه التقدير والعناية التي يراها لائقة به وبأدبه.

ومن أبعاد هذه الظاهرة أن هؤلاء الذين تناولتهم هذه النظرات كانوا من ذوي المعرفة والأدب والفضل، فأبو الغمر المديني كان كاتباً لوالي المدينة ومن سمات الكتاب -غالباً- المعرفة والعقل والركانة، ومخلّد الموصلي كان جيد المعرفة بلغة العرب وشعرهم كما يظهر من بعض قصائده<sup>(١)</sup>، وأبو العبر نُعت بأنه ذو أدب صالح وشعر طيب،<sup>(٢)</sup> وأنه قوي الحفظ واسع المعرفة،<sup>(٣)</sup> وأبو الشبل كان مطلعاً على شعر العرب وأخبارها، عارفاً بالأنواء كما يظهر من بعض شعره<sup>(٤)</sup>، وقد انتظموا جميعاً في خيط واحد، هو الرغبة في الظهور، وإثبات الذات.

ومن أبعادها كذلك شيوع الهجاء المقذع عند أغلبهم، "وكأنهم يجدون في ذلك راحة لأنفسهم، ووسيلة لإزالة عقبات تعترض سبيل شهرتهم، وتحول بينهم وبين... علو المنزلة وبعد الصيت"<sup>(٥)</sup>، وأكثرهم لا يعف عن رمي خصومه بما يستطيعه من فحش ورمي بالعظائم، وكل ذلك عائد إلى ما تلجلج في أنفسهم من الغيظ لما يرون من انحطاط قيمتهم وتغييب أدبهم في عصر زخر بالمبدعين، فهجاؤهم صورة لما استقر في بواطنهم من عواطف ماردة، وأهواء ثائرة.

وتسعفنا هذه الظاهرة بدلائل وشواهد على بعض ما شاع في العصر العباسي من غلبة اللهو والمجون، والإسراف فيهما إلى حد بعيد، عند هذه الطبقة من

(١) ينظر: أخبار أبي تمام ص ٢٣٦و: ديوان المعاني ١/٣٣٥.

(٢) ينظر: الأغاني ٢٠/٢٢٥.

(٣) ينظر: معجم الأدباء ١٧/١٢٢-١٢٣.

(٤) ينظر: معجم الشعراء ص ٢٧٥و: الأغاني ١٣/٤٦.

(٥) نظرات في أصول النقد والأدب ص ٢٥٤.

الأدباء، وقد يرجع ذلك في رأي بعض الدارسين إلى الهرب من الحياة والتخفف من أعبائها،<sup>(١)</sup> مضافاً إليه ما أسلفت من أسباب نفسية متشابهة عند هذه الطائفة المشار إليها.

ونستاجهم - وإن كان فيه كثير مما لا يُحمد - يدل على البيئات المختلفة، واتجاهات أهلها، وفيه عون للدارس على فهم العصر وتياراته، كما أنه يمثل نزعات النفوس، وخطرات القلوب<sup>(٢)</sup>.

وأنا وإن وصفت نتاج بعضهم بأنه صادر عن فلسفة؛ لا أعني الفلسفة العميقة المبنية على رؤية مقننة، وإنما مرادي أنه يصدر عن يقين بما يؤول إليه مذهبه الشعري، وهو لفت النظر وإشاعة الذكر.

وبعد، فقد طمعت من خلال استعراض نتاج تلك الطائفة من الشعراء المغمورين، في تسليط بعض الضوء على ألوان من الأدب الممتزج ببعض دقائق النفوس، وهو - على علاقته - يمثل جوانب من تراثنا الشعري الذي يكاد يهمله الدارسون، لانصرافهم إلى أدب المشهورين، ولعل لفت النظر إليه يحقق ما طمح إليه بعض الدارسين من إضافة روافد جديدة للأدب العربي، وإغنائه بنماذج ظلت غير منظورة آماداً طويلة.<sup>(٣)</sup>

وهذه النماذج من الشعر - وإن عُذَّ بعضها من الهزل التافه - تفيد في إكمال الصورة التي نعرفها عن العصر العباسي بوجه خاص، ونحن أحوج ما نكون إلى البحث عن المستتر والمغيَّب، فقد يكون فيه فتوح وإشراقات، وربما أدى بنا إلى تغيير بعض الأحكام والنظرات، أو إعادة النظر في بعضها الآخر، والله ولي التوفيق.

---

(١) ينظر: العصر العباسي الثاني ص ٤٥٨.

(٢) ينظر: نظرات في أصول الأدب والنقد ص ٢٥٧.

(٣) ينظر: شعراء أمويون ص ٦.

## ثبت المصادر والمراجع:

- ابن الرومي حياته من شعره، عباس محمود العقاد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، الطبعة السادسة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.
- أخبار أبي تمام، لأبي بكر الصولي، تحقيق خليل محمود عساكر وصاحبيه، المكتب التجاري، بيروت، د.ت .
- الأدب الفكاهي، د. عبد العزيز شرف، مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية، القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٢م .
- أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق لأبي بكر الصولي، تحقيق ج. هيورث. دن، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ .
- إضاءات في النقد الأدبي، عادل الفريجات، دار أسامة، دمشق، ١٩٨٥م .
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م
- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٧م .
- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحن الذاهن والهاجس، لابن عبد البر القرطبي، تحقيق محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، د.ت .
- تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني)، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م .
- تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩م .
- تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، نقله إلى العربية محمود فهمي حجازي، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١١هـ .
- التذكرة الحمدونية، محمد بن الحسن بن حمدون، تحقيق د. إحسان عباس وبكر عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦م .



- التفسير النفسي للأدب، د. عز الدين إسماعيل، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، د.ت .
- جمع الجواهر في الملح والنوادر، أبو إسحاق الحصري، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٢هـ .
- حول الأدب في العصر السلجوقي، د. محمد التونجي، مكتبة قورينا، بنغازي، الطبعة الأولى ١٩٧٤م .
- الحيوان في الأدب العربي، شاكر هادي شكر، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .
- ديوان أبي تمام، ضبطه وشرحه شاهين عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ .
- ديوان المتنبي بالشرح المنسوب للعسكري، تحقيق مصطفى السقا وصاحبيه، دار المعرفة، بيروت، د.ت .
- ديوان المعاني، أبو هلال العسكري، مكتبة القدسي، القاهرة، د.ت .
- سقط الزند، أبو العلاء المعري، دار صادر، بيروت، ١٤١٢هـ .
- شعراء أمويون، د. نوري حمودي القيسي، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .
- طبقات الشعراء، عبد الله بن المعتز، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م .
- العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق أحمد أمين وصاحبيه، دار الكتاب العربي ١٤٠٦هـ .
- فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣-١٩٧٤م .
- لسان العرب، ابن منظور، دار لسان العرب، بيروت، د.ت .

- الخاسن والمساوي، إبراهيم البيهقي، دار صادر، بيروت، ١٣٩٠هـ .
- مختار الأغاني، ابن منظور، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٨٣هـ .
- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبدالرحيم العباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت ( مصورة عن طبعة المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٦٧هـ ) .
- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ ( مصورة عن طبعة مرجليوث عام ١٩٠٧م ) .
- معجم الشعراء، المرزباني، نشره د. سالم الكرنكوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ ( مصورة عن الطبعة الأولى ) .
- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، المرزباني، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت .
- نثر الدر (ج ٧) أبو سعد الآبي، تحقيق منير محمد المدني، مراجعة د. حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م .
- نظرات في أصول الأدب والنقد، د. بدوي طبانة، شركة عكاظ، جدة، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .
- النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، د.ت ( مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ) .
- الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، د. محمد محمد حسين، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٩هـ .